الثنائيات الضّدية في الصورة الشعرية الجاهلية – وصف الخيل أنموذجًا – مقاربة سيميائية

د. زينب كامل محمد عبد العال (*)

ملخص البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى مقاربة النص الجاهلي، وقراءته على ضوء المنهج السيميائي عن طريق محاولة فك شفراته، واستخراج دلالات الثنائيات الضدية للصورة الشعرية الجاهلية، بوصف العلاقة بين الأدب والصورة علاقة فعّالة تخضع لقوانين علامية تنتج مجموعة من المعاني لا حصر لها.

ولمّا كانت السيميائية علمًا يهتم بدراسة العلامات جاءت هذه الدّراسة لرصد الدلالات السطحية والعميقة التي تخفيها بنية اللغة باتخاذ الصورة بُعدًا دلاليًا مائزًا في النظرية السيميائية.

(*) مدرس الأدب العربي بكلية دار العلوم جامعة المنيا.

التمهيد:

الاختلاف سنة من سنن الله في خلقه؛ فالحياة مليئة بالمتضادات، والمتناقضات، والثنائيات الضدية التي تجعل الحياة متنوعة، وأكثر دهشة، وينم ذلك عن اختلاف أذواق البشر، وتباينها، وهذه الثنائيات الضدية يُظهر بعضها بُعدًا دلاليًا للآخر وكما قالوا قديما: "والضد يظهر حسنه الضد"

فالشيء يظهر جماله وقيمته عند مقارنته، أو مقابلته بضده، كذلك يُمكن للمواقف المتضادة والصفات المتباينة أن تساعد في فهم وتوضيح المعاني الجمالية، والدلالات المتعددة. وظاهرة الثنائيات الضدية تتجلى في الشعر العربي بصورة واضحة فتُكسب الشعر بُعدًا دلاليًا وجماليًا مائزًا.

وقد عرف العرب هذه الثنائيات الضدية واستخدموها في أوصافهم وجملهم التعبيرية.

واللغة بوصفها منظومة قائمة على مباديْ التماثل والاختلاف، وتمثل الصورة التي تجمع بين الشيء ونقيضه أو ما يُسمى (الثنائيات الضدية) أنموذجًا بارعًا في الوصف؛ حيث يستطيع المبدع أن يستعين بإمكانات اللغة مستفيدًا من خصائصها، ولغة الشعر تمتاز عن غيرها من اللغات بالصور التحليلية والمراوغة، وتمثل هذه الصور الضدية لوحة جمالية تُثري النص معاني ودلالات مائزة لا تتجلى في غيرها من الصور.

وإن كان العرب قديمًا قد عرفوا هذه الصور، فإنها تجلت أكثر ما تجلت عندهم في الوصف الخيل؛ وذلك لمكانة الخيل عندهم؛ فما من أمة من الأمم إلا واهتمت بالخيل اهتمام العرب بها، ولا فارس مجّد فرسه، واعتنى به اعتناء الفارس العربيّ به، ولم يقتصر استخدام العرب للخيل على الركوب فقط، بل استخدموه بوصفه أداة للانتقال من مكان إلى آخر، أو استخدامه في القتال والحرب، بل أصبحت الخيل عند العربيّ واحدة من أبنائه، وفردًا من أفراد قبيلته، فكانت القبيلة تقيم احتفالات إذا أنتجت فرس أحد أبناء القبيلة، يقول ابن رشيق: "وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج"[1].

[1] ابن رشيق القيرواني: العمدة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، مجلد١، ١٩٨١م، ص٦٥.

كما يقول الجاحظ: "لم تكن أمة قط أشد عجبًا بالخيل، ولا أعلم بهما من العرب"[١]

فالخيل شريك الفارس العربي الأول في مختلف حياته، في فرحه، ونصره، ومرار هزيمته، وشرف نسبه ومجده، وقد سُميت خيلًا؛ لاختيالها[٢] فتشعر بالخيلاء في سيرها وعدوها.

كما دعت طبيعة الصحراء العربية الإنسان إلى ضرورة امتلاك الخيل، حيث الصحراء مترامية الأطراف، والجبال الشامخات وكان العربي شديد الحرص على فرسه؛ وكان يعلق عليها التمائم خوفًا عليها من أعين الحاسدين، شديد الدفاع عنها، لوفائها وشجاعتها وإقبالها في الحرب، ودهس رقاب الأعداء، والزود عن صاحبها، وكان العربي يعُطي فرسه أسماءً وأنسابًا مشتقة من سماتها وألوانها.

وقد انعكست أهمية الخيل عند العرب على الشعر الجاهلي بلا شك، فالشعر ديوان العرب وحافظ تاريخها، وقد عبّرت الثنائيات الضدية في صورة الخيل عن صور ذات دلالات مكثفة أثرت النص الأدبي وزادته جمالًا.

السيميائية: الماهية والنشأة

اقتحمت الساحة النقدية العربية الحديثة مجموعة من المناهج النقدية التي فرضت نفسها بقوة على المستويين؛ النظري والتطبيقي، وتعددت الرؤى التي نظرت منها أعين النقاد لهذه المناهج، الأمر الذي ساعد بشكل كبير في إثراء النقد العربي باتجاهات عديدة، وآليات مختلفة تحاول استيعاب النص الأدبي، ومقارنته بإستراتيجيات حديثة، وقد أفسحت السيميائية المجال لنفسها حيث تمكنت من فرض نفسها بقوة ملحوظة على المشهد النقدي الحديث والمعاصر، إذ أضحت بؤرة اهتمام الدارسين والباحثين في محاولاتهم للإفادة من آلياتها الثرية، وإجراءاتها التحليلية؛ فاتسع مجالها، وتعددت مبادؤها، وتنوعت آلياتها.

---

[١] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، مصطفي البابي الحلبي،٢٠٠٦م

[٢] ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: دكتور مفيد محمد قميحة الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١/ ١٥٢- ١٥٣.

يُعدّ المنهج السيميائي من أبرز المناهج النقدية الحديثة، التي تحاول تحليل النص الأدبيّ وقراءته ومقاربته بوصف النص يحمل الكثير من الأسرار غير المعلنة التي يعمد المبدع إلى إخفائها؛ لاستفزاز القارئ (المتلقي) فيحثه على البحث عن هذه الأسرار، كما يدعوه إلى فك الرموز والشفرات فاللغة مُراوغة بسلطتها؛ تخفي أكثر مما تعلن، هنا يكون هذا المحور هو نقطة انطلاق المتلقي؛ لهذه الأسباب نادت السيميائية بالعودة إلى داخل النص من خلال البحث فيه وسبر أغواره من خلال الأسس اللسانية والسميولوجية: المعتمدة على جمال التلقي، فالنص ذو انفتاح مُعلن، يسعى القارئ إلى استيعاب نظامه الغامض، فيقوده ذلك إلى تكثيف المعاني ومضاعفتها من خلال القراءة الداخلية التي تلتحم فيها أجزاء النص، والقوانين الداخلية للنص هي التي تحكم تأدية اللغة لوظائفها الدلالية.

وقد كان ظهور السيميائية ضمن علوم اللسانيات العامة مع بداية الستينيات من القرن العشرين، والسيميائية تنظر إلى النص على أنه مجموعة من العلامات، فالكلمة علامة، والصورة علامة.

ماهية السيميائية:

* مصطلح السيميائية شأنه شأن سائر المصطلحات النقدية الحديثة التي عرف العرب إرهاصاتها، وتنبؤوا بدلالاتها، وقدموا حولها العديد من الدراسات بعناصرها المختلفة، لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن السيميائية بوصفها منهجًا له قواعده، وأسسه وآلياته، وأدواته المنهجية بلا شك هي وليدة الفكر الغربي الحديث الذي برز في القرن العشرين.

كان للعرب السبق في استخدام مصطلح السيميائية الذي يعني العلامة، لكن توقف ذلك السبق عند المفهوم النظري لهذا المصطلح، ولم يؤسس له نظريات ممنهجة، وإجراءات مرتبة، وآليات ممهدة، كل ذلك الانفراد استحوذ عليه الغرب فظهر على يد جون لوك وبيرس ودو سوسير وغيرهم من الرواد.

القرآن الكريم:

وردت كلمة سيمياء بمشتقاتها المختلفة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى:

"سيماهم في وجوههم من أثر السجود"[١] أي: علاماتهم.

ومنه قوله تعالى في موضع آخر:

"والخيل المسومة والأنعام والحرث"[٢] أي: الخيل التي سُوَّمت أي جُعل لها علامة.

الحديث الشريف:

وردت هذه اللفظة في بعض أحاديث رسول الله - ﷺ - بأشكال متنوعة، ومنه قوله:

"لكم سيمياء ليست لأحد من الأمم، تردون عليّ غرًا محجلين من أثر الوضوء"(٣) أي: لكم سمات وعلامات خاصة بكم.

ومنه قوله ﷺ - يوم بدر يأمر أصحابه:

"سَوَّمُوا؛ فإن الملائكة قد سومت"(٤) أي: اجعلوا لكم علامة يعرف بعضكم بها بعضا.

الشعر العربي:

وردت كلمة سيمياء في الشعر العربي بأشكال متنوعة تارة بالمد، وبالقصر تارة أخرى، وكانت تعني في كلتا الحالتين: العلامة، ومنه قول النابغة الجعدي:

ولهم سيمياء إذ تبصرهم بينت ريبة كل من يسأل(٥)

---

[١] سورة الفتح، آية (٣٠)

[٢] سورة آل عمران، آية (١٤)

[٣] صحيح مسلم، ص٢٤٧

[٤] الهروي، أبو عبيد أحمد بن محمد (المتوفى ٤٠١ هـ)، الغريبين في القرآن والحديث، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعه: أ. د. فتحي حجازي، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٣/ ٩٥٥.

[٥] النابغة الجعدي، ديوانه، دار صادر، بيروت، ط، ص١٨٨

أي عليهم علامات تدخل الشك والريبة في نفوس السائلين، ويقول البحتري أيضًا:

وعليهم من الندى سيمياء وصلت مدحه بكل لسان([1])

يتضح مما سبق أن كلمة سيمياء وردت في كل من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي بمعنى العلامة.

المعاجم العربية:

جاء في لسان العرب في مادة (س. م. و) "السومة، والسيمة، والسيماء، والسيمياء: العلامة، وسوّم الفرس: جُعل عليه السيمة"([2]).

ويقول الجوهري: "السومَةُ، بالضم: العَلامة تُجعَل على الشاة، وفي الحرب أيضاً. تقول منه: تَسَوَّمَ، وفي الحديث: " تَسَوَّمُوا فإنَّ الملائكة قد تَسَوَّمَتْ ". وسَوَّمْتُ فلاناً في مالي، إذا حكمته في مالك، عن أبي عبيدة. والخيل المسومة: المَرْعِيَّةُ. والمُسَوَّمَةَ: المُعْلَمة"([3]).

وقال ابن الأعرابي: "السيمة: العلامة على صوف الغنم، والجمع: السّيم"([4]).

فالسمة معجميًا هي العلامة، والسيمياء بهذا المعنى توافق المنهج النقدي الحديث المعاصر.

السيمياء في الفكر العربي:

عرف العرب لفظة السيمياء قديمًا، وتعددت استخداماتهم لها ولعل أبرز ما نجده في التراث قول ابن سينا في مخطوط له بعنوان (كتاب الدر النظيم في أحوال علوم التعليم) في فصل جاء تحت عنوان (علم السيمياء) يقول: "

[1] البحتري، ديوانه، تحقيق كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص١٩٩

[2] ابن منظور، لسان العرب مادة (س. م. و)، دار صادر بيروت، لبنان، مجلد١٢

[3] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، ٥/ ١٩٥٥.

[4] ابن الأعرابي: المعجم تحقيق عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، مجلد (١) دار ابن الجوزي

علم السيمياء علم يقصد به كيفية تمزيج القوى التي في جواهر العالم الأرضي؛ ليحدث عنها يصدر عنها فعل غريب"([1]).

وابن سينا هنا يربط علم السيمياء بعالم الروحانيات والسحر والشعوذة، فالمفهوم إذن عنده بعيد عن العلامة وعلم اللسانيات لكن الجرجاني كان أقرب في وجهته حيث قال: "اللغة تجري مجرى العلامات والسمات، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلًا عليه"([2]).

يشير الجرجاني في كلامه إلى أن ألفاظ اللغة عبارة عن علامات وسمات تدل على المعاني التي تؤدي بذلك وظيفتها الإبلاغية، لكن المعنى عند الجاحظ نراه متسعا فيشمل مصطلحين متباينين حيث يرى: أن "الدلالة باللفظ، فأمّا الإشارة فباليد والعين والحاجب، والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدد رافعًا السوط والسيف، فيكون ذلك زاجرًا رافعًا...، والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه"([3]).

ويُقسّم الجاحظ العلامة قسمين: علامة لغوية، وأخرى غير الغوية، وكلتاهما أداة لتوصيل المعنى، والتعبير عما يدور في النفس.

من خلال الطرح اللغوى القديم يتبين أننا أمام فكرين، أولهما يُمهَّد لإرهاصات الفكر السيميائي الحديث فيجعل من العلامة أداة توصيل وتبليغ، كما يميّزها عن الدلالة اللغوية بشكل ما يتشابه كثيرًا - مع نقاد العصر الحديث في نظرتهم للرافد السيميائي الغربي، وقد ارتبط هذا النوع بمصطلح الإشارة.

[1] انظر فيصل للأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ص٣٣

[2] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ، ص٢٧٦

[3] أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبين،١٩٩٨م، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ط٧، ط١، ص٧٧

وثانيهما: أقرب إلى الحفاظ على المعنى المعجمي والاصطلاحي للسيمياء، لكنه يقتصر على العلامة اللغوية كما قال الجاحظ.

وهنا مفترق طرق جيد يستطيع الباحث أن يسلكه للسيمياء الاصطلاحية، والتصورات السيميائية التى نجدها عند المفكرين العرب القدامى.

وفي الدراسات العربية الحديثة نجد اختلافًا واضحًا بين النقاد العرب في نسبة المصطلح، وكل له رأي يعتمد على ثقافته ومرجعيته، يعرف صلاح فضل السيميائية بقوله : "هي علم يدرس العلامات والرموز وكيفية استخدامها في التواصل"

ويرى محمد مفتاح أن السيميائية تساعد في فهم النصوص الأدبية والثقافية بعمق أكبر، كما يعتبر عبدالله الغذامي السيميائية أداة مهمة لتحليل الدلالة والرموز في النصوص الأدبية.

السيمياء في الفكر الغربي:

ورد في معجم اكسفورد السيمياء (Semiotics) أنها: "دراسة العلامات والرموز ومعانيها، واستخداماتها"([1])، وجاء الحديث في هذا المعجم عن السيمياء مقتصرًا على العلامة التي تحمل بُعدًا دلاليًا، ودراسة أساليب التواصل.

أمّا معجم (Long man) فقد جاء الحديث فيه عن المصطلحين (semiotics), (semiology) اللذان يشيران إلى مفهوم واحد وهو دراسة العلامات ومن ضمنها الصور بوصفها شكلًا من أشكال التواصل البشري([2]).

[1] oxford dictionary' gth edition, oxford university press..

[2] long man of contemporary English, p(491)

وبذلك يكون المعنيان متشابهان، إلا أنه يُمكن التفريق بينهما في مجال الممارسة.

وقد قدّم مُعجم (Hachette) الموسوعي تعاريف واختلافات لهذه المصطلحات، حيث عرّف السيميولوجيا بأنها: "علم يدرس العلامات، وأنساقها داخل المجتمع" وحدد السميوطيقا بأنها "النظرية العامة للعلامات، والأنظمة الدلالية اللسانية وغير اللسانية"([1])، ويشير مفهوم (السيميولوجيا) إلى استخدام العلامات داخل إطار الممارسة الاجتماعية والثقافية التابع لبُعد المجتمع، كما تمثل(السميوطيقا) الجانب النظري لدراسة العلامة بمختلف أنواعها وبذلك تكون السيموطيقا أوسع من السميولوجيا، ويُعد هذا السبب من أبرز الأسباب التي أدت إلى اضطراب استعمال المصطلح؛ حيث تباينت الآراء، وتعددت المناهج، وتنوعت الاتجاهات.

نشأة السيميائية:

جاءت مرحلة التبشير بميلاد السيميائية على يد العالم السويسري (فرديناند دي سوسير) في أحد فصول كتابه (محاضرات في علم اللغة العام)؛ الذي جمعه ونشره طلابه بعد وفاته، والسيميائية عند سوسير تدرس الإشارات والأنظمة والقوانين التي تحكمها، وهي بذلك علم غير ناضج - على حد تعبير سوسير - فهي علم يسعى لإثبات حضوره، وإرساء مبادئه وهي بذلك فرع من علم النفس العام، وعلى ذلك قال كثير من الباحثين ببداية حقيقية للسيميولوجيا مع التصور السويسري، وتمثل هذه النظرة الاتجاه السويسري بقيادة (سوسير) لم تلبث قليلًا الاّ أن وجدنا اتجاهًا غربيًا آخر يقول نشأة السيميولوجيا في ظل الفلسفة، وقد ارتبط هذا الاتجاه بالفيلسوف المنطقي (تشارلز سندرس بيرس)(١٨٣٨م) وهو الذي أطلق على علم العلامات علم (السميوطيقا) الذي تقوم عنده على المنطق والظاهراتية

[1] عبد القادر مشارف، الاتجاهات السميولوجية المعاصرة ترجمة: حميد الحمداني وآخرون، ١٩٨٧م، دار افريقيا الشرق الدار البيضاء، المغرب، ص١٧

والرياضيات([1])، فالسميوطيقا عنده مدخل للمنطق وهي بذلك تكون ذات وظيفة فلسفية، وتمثل هذه النظرة الاتجاه الأميريكي بقيادة (بيرس) ويمثل الاتجاهان: الأميريكي والسويسري نقطة الخلاف وعنصر المتاهة الدلالية للمصطلح، حيث تفرع عن هذين الاتجاهين مدارس ومناهج مختلفة، لكل منها مبادؤها ومصطلحاتها الخاصة، الأمر الذى أسفر عنه وجود فوضى كبيرة حينما تم تعريب هذا المصطلح، هذه الفوضى تنم عن عدم معرفة كافية للإلمام بهذا المصطلح.

تعود كلمة سميولوجيا إلى الأصل اليوناني (Semeion) ويعنى علاقة (Logos)، ويعنى خطاب، وبامتداد أكبر تعني كلمة (Logos) العلم، فيصبح مفهوم السيميولوجيا: علم العلامات وارتبط مصطلح (Semiologie) في نشأته الأولى بعلم الطب، وكان موضوعه محصورًا في "دراسة العلامات الدالة على المرض" ثم وظفه الفلاسفة والمناطقة في أبحاثهم ومحاوراتهم بعد.

السيميائيات: هي إحدى علوم اللغة التي تدرس الإشارات أو العلامات وفق نظام منهجي خاص يبرز ويحدد الإشارة أو العلامة اللغوية أو التصويرية في النصوص الأدبية وفى الحياة الاجتماعية.

والسيميائية بوصفها منهجًا نقديًا: تهتم بدراسة حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعية، وتحيلنا إلى هذه الدلائل، وعلتها، وكينونتها، ومجمل القوانين التي تحكمها، واللغة هي مجال عمل المنهج السيميائي، والمقصود باللغة هنا: اللغة النظام دون اللغة الأداء، وهذا ما جعل السيميولوجيا ممارسة استقرائية استنتاجية تنطلق في تحليلها للنص الأدبي، بوصف النص يحتوي على بنية ظاهرة وبنية عميقة نسعى إلى تحليلها والوصول إليها. تقوم السيميائية على إطلاق الإشارات كدوال حرة لا تقيدها حدود المعاني

[1] جميل حمداوي: مدخل إلى السميوطيقا السردية، كتاب مخطوط ٢٠١٥م، في المغرب، ص١٦

المعجمية، فيصير للنص فعالية قرائية إبداعية تعتمد على الطاقة التخيلية للإشارة في تلاقي بواعثها مع بواعث ذهن المتلقي؛ فيصير القارئ هو صانع النص.

ويتجاوز المنهج السيميائي حدود البنية، ويُعنى بدراسة أنظمة التواصل بوساطة علاماته وإشاراته الخارجية التي تميزه عن الدلالات، كما تسعى السيميائية إلى إطلاق قيد العلامة وجعلها بديلًا للبنية، من خلال الانتقال من الحاضر إلى الغائب (المسكوت عنه) ويعد هذا هو المبدأ الأبرز في الدراسات السيميائية بوساطة إستراتيجية النفاذ إلى عمق النص.

سيميائية الصورة:

تُعد الصورة المرئية لغة بصرية بالغة التركيب؛ متنوعة بتنوع المجتمعات تعتمد على معطيات الطبيعة وتستند إلى أيقونة النظام الإشاري وتدل الصورة في إحالتها على دال يثيره التشابه مع الإحالة إليه، وسيميائية الصورة - باختلاف نوع هذه (حركية – سمعية- بصرية.....)

الصورة - تنتج مجموعة من الدلالات لا حصر لها، وتكثف المادة الشعرية بمعاني متنوعة، لذلك عرف العرب وقع هذه الصور على نفس السامع وبخاصة صورة الثنائيات الضدية التي تستدعي الأضداد معنى بعضها بعضًا فيها، وقد عرف العرب هذه الثنائيات وعددوا في رسم صورها، لاستنطاق المعنى، والتحليق بخيال السامع إلى أبعد مجال.

وصف الخيل عند امرئ القيس (*)([1])، وصف امرؤ القيس الخيل بأبيات عدّها النقاد من عيون الشعر العربي، كما مثل فرس أمرئ القيس فرسًا

[1] (*) امرؤ القيس حُندُج بن حُجر بن الحارث الكِندي، شاعر عربي جاهلي، ذو مكانة رفيعة، يعُد رأس الشعراء العرب وأبرزهم في التاريخ ووصف بأنه أشعر الناس، وهو صاحب أشهر معلقة من المعلقات ولد (٥٠١م) بنجد، توفي (٥٤٤م) بأنقرة للمزيد انظر ديوانه، ص٤

مثالًا يجمع بين الصفات وأضدادها به من شدة سُرعته وحركته ووفائه، فلم يُسعف امرؤ القيس في وصف فرسه إلا صور الثنائيات الضدية التي اعتمد عليها اعتمادً كليًا؛ لتُبرز السمات الجمالية والبعد الدلالي المائز في وصف الخيل، ليرسم أبدع صورة لوصف الفرس يجمع فيها بين الحركة والثبات، والكر والفر، والإقدام والرجوع.

يقول امرؤ القيس في معلقته مصورًا الفرس:([1])

١. وقد أَغْتَدي والطَّيْرُ في وَكَناتِها بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابِدِ هَيْكَلِ
٢. مِكَرٍ مُفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ
٣. كُمَيْتٍ يَنُزِّلُ اللِّبْدَ عَنْ حالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْواءُ بِالمُتَنَزَّلِ
٤. مَسَحٍ إذا ما السّابِحاتُ على الوَنَى أَثَرْنَ غُبارًا بِالحَديدِ المُرَكَّلِ
٥. على المُعَقِّبِ حَيّاشٍ كأَنَّ اهْتِزامَهُ إذا جاشَ فيهِ الحَمِيَّةُ غَلَى مِرْجَلِ
٦. يَطيرُ الغُلامُ الخِفُّ عَنْ صَهَواتِهِ ويَلْوِي بِأَثْوابِ العَنِيفِ المُثَقَّلِ
٧. دَرِيرٍ كَخَذْرُوفِ الوَلِيدِ أَمَرَّهُ تَقَلَّبَ كَفَّيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ
٨. لَهُ إِطْلَةٌ ظَبْيٍ وساقا نَعَامَةٍ وإِرْخاءُ سَرْحانٍ وتَقْرِيبُ تَنْفُلِ
٩. كأَنَّ على الكَتِفَيْنِ مِنْهُ إذا انْتَحَى مِدَاكَ عَرُوسٍ أو صَرايَةُ حَنْظَلِ
١٠. وباتَ عليهِ سَرْجُهُ ولِجامُهُ وباتَ بِعَيْنَي قائِمًا غيرَ مُرْسَلِ
١١. كأَنَّ دِماءَ الهادياتِ بِنَحْرِهِ عَصَارَةُ حِنّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ

هذه الأبيات التي وصف بها امرؤ القيس فرسه تدل على أن الحصان يحتل مكانة واسعة في قلبه، فهو يصفه بأدق صور وأبلغها، ويفخر به، لا يعده فقط وسيلة للحرب والفوز على الأعداء، إنه صديقه وملازمه وقت الصيد، يقترن لهم الفرس دائما باسم امرئ القيس؛ لأنه محب له؛ يجيد وصفه، ويقدر منزلته، ينقل لنا صورًا حية نامية تجعلك ترى الفرس أمامك وتحضر معه المعركة، وتشاركه نزهة الصيد بأدق تفاصيلها، يصف امرؤ القيس رحلات صيده بالخروج باكرًا في الشمس مع حصانه الضخم القوى، السريع، فالخيل حصن الشاعر الذي يتحصن به، وملاذه، ومصدر فخره،

[1] امرؤ القيس، ديوانه، رواية الأصمعي من نسخة الأعلم، ج١، ص١٩

يسعى الشاعر الجاهلي إلى تشجيع نفسه، ودفع الهم عنه فيلجأ إلى وصف الفرس المثال، وكأنه مصدر قوته وشجاعته، حينما تذكر الشجاعة والإقدام لابد من ذكر صورة الفرس، لجأ أمرؤ القيس إلى فرسه المثال واصفه بصورة كانت ولا تزال أبدع صورة لوصف الخيل العربي توقف عندها جُل الدارسين والنقاد بوصفه فرس أسطوري يجمع بين الصفة وضدها، حيث تلعب الصورة دورًا بارزًا في وصف امرؤ القيس لفرسه بين الحركة والثبات والكر والفر والإقدام والرجوع في صورة تزامنية تجعل فرس امرؤ القيس فرسًا فريدًا من نوعه أسطوريًا لا يتكرر، لا يريد امرؤ القيس من فرسه إلا أن يزوده بمزيد من الثقة والقوة والشجاعة، فهو حصان سريع ماهر يتفوق على الوحوش وللطرائد فتبدو أمامه مقيدة لا قوة لها على الحركة في ظل أن فرسه شامخ في الأرض متشبث به لا يتحرك عنه كالبناء الضخم على الأرض.

يبدأ الشاعر وصفة للفرس بصورة لونية تملًا أرجاء الأرض، فالغد وأول الصباح وقت إشراقة الشمس وضيائها، وهذه الصورة اللونية الضوئية تعكس صورة الظلام التي تسبقها ليلًا وأيقونة رمزية لليل.

فالفرس شمسه المشرقة بعد ظلام دام لليل كامل، ولفظة (قيد الأوابد) تؤكد الصورة التي تسبقها، وقوة الفرس تمكنه من الانتصار على الوحوش وإشعارها بالعجز والإحباط، وهو فرس قوي، وهنا تتزامن الأفعال الضدية في وقت واحد، وهذا يدل على قوة الفرس المفرطة، فهو لا يهاب العدو وهنا تظهر بلاغة وقوة عبارة امرئ القيس، حيث إن وجود حصانه في حركة مستمرة يجعل الرائي يظنه في كل مكان باللحظة نفسها، ثم ينتقل امرؤ القيس إلى صورة لونية أخرى للفرس في قوله (كميت) وهو لون الحمرة المائل إلى السواد وفي ذلك إشارة إلى شدة الحصان وقوة انتصاره في المعارك والمطاردات الوحشية، (والكميت) صورة لونية أخرى للفرس، فهو الفرس الذى خالط حمرته سواد، وقد ارتبط اللون الأحمر بالتعب والمشقة من ناحية أخذه من لون الدم، ومن ناحية أخرى يدل على

القوة والنشاط والإقبال، وهو لون مناسب لنزهة امرئ القيس ودليل على نشاط فرسه، وسرعة حركاته المتتالية التي لا تهدأ، فمن شده حمرته اختلطت بالسواد، وتظهر صفة الفرس أكثر في الصورة التالية في الفعل (يزل)؛ ليصور الشاعر (في صورة حركية رائعة)، حركة فرسه وهو يدفعه عن ظهره فيكاد يسقطه لولا تمرسه يشبه سرعته بالصخرة الضخمة المنحدرة من أعلى الجبال، وهذه صورة حركية نامية وهذا يعكس دلالات عديدة فهو فرس مكتنز للحم، ضامر الوسط، ثم يصف سرعة الفرس في صورة حركية تدل على سرعة العدو ليس كالسابحات الضعاف اللائي يثرن الغبار بالحديد، وهذا الفرس لا يذل لغير سيّده قوي شجاع يزود عن صاحبه، وفي ثنائية الضد في صورة الفارس والغلام الصغير الذي لا يستطيع أن يثُبت نفسه على ظهر الفرس فيكاد يُسقطه عن ظهره، تظهر قوة الفارس العربي الذي يجلس بقوة وثبات، فظهر الفرس دليل على فروسية امرئ القيس.

ثم يصور الشاعر حركة الحصان المتتابعة التي لا تنقطع بلعبة كان يمسكها الغلمان الصغار يصلون الحبل فيها إذا انقطع، حتى لا تقطع حركة اللعبة، فهو حصان لا تهدأ حركته ولا تنقطع أنفاسه وسرعته.

وهذا الحصان السريع القوى له سيقان كسيقان النعامة الرفيعة، وهنا إشارة إلى سرعته المتلاحقة، وخاصرة ضامر كخصر الظبي وإشارة أخرى هنا إلى رشاقته، وهذه من سمات الخيل العربي المستحسنة - صدره عريض، أضلاعه بارزة، ذيله طويل، يكاد يصل إلى الأرض من طوله فهو فوق الأرض بقليل، كمان أن رقبته جميلة حينما يديرها الحصان يظهر حُسنها، وهذا يدل ويشير إلى أصالة الحصان، فهو خيل أصيل يرعاه صاحبه ويحافظ عليه.

ويعجب أمرؤ القيس بحصانه أيما إعجاب حتى إنه في لوحة لونية وصورة دموية يجعل الدم الذي سال على رقبته نتيجة افتراسه الوحوش والقضاء

علـيهم كأنـه حنـاء تـزين لحيـة شـيخ كبيـر وهـذا مـا يُسـمى (بجماليـات القُـبح)، وبراعـة تصـوير امـرئ القـيس لفرسـه الـذي يحبـه حبًـا ملحوظـا بوصـفه فـي هـذه الأبيات.

نحـن أمـام مجموعـة مـن الثنائيـات الضـدية التـي صـورها الشـاعر فـي لغتـه الشـعرية؛ لتُثـري الـنص الشـعري إثـراءً واضـحًا - فنيًـا ودلاليًـا – بمجموعـة من المتضادات التي صنعت لوحة جمالية بالرحمة ناطقة.

الغَدو	X	الليل
الكَرّ	X	الفَرّ
الإقبال	X	الإدبار
الفارس الماهر	X	الغلام الصغير
الصدر العريض	X	سيقان النعام
الضلوع البارزة	X	الوسط الضامر
الحناء	X	الدم

وصف الخيل عند عنترة بن شداد (*)[1]:

لا تكتمـل صـورة الفـارس العربـيّ، إلا بوصـف حصـانه - وكـان عنتـرة شـديد الفخـر بنفسـه وبشـجاعته، ومحاربتـه وتصـديه للأعـداء؛ حتـى يسـتميل أنظـار محبوبتـه (عبلـة) ابنـة عمـه، وتأكيـدًا علـى قوتـه وشـجاعته، كـان عنتـرة يصـف الحصـان بأنـه آلـة حربيـة تعينـه علـى قهـر أعدائـه والتصـدي لهـم، لـيس كمـا يـراه امـرؤ القـيس صـديقًا ومؤنسًـا وحبيبًـا يتضـح مـن ذلـك اخـتلاف فـرس عنتـرة عـن فرس امرئ القيس، يصور عنترة فرسه قائلًا:([2]).

١. ولَرُبَّ مُشْعِلَةٍ وَزَّعْتَ رِعالَها بِمُقَلَّصٍ نَهْدِ المَراكِلِ هَيْكَلِ
٢. سَلِسِ المَعاذِرِ لاحِقٍ أَترابَهُ مُتَقَلِّبٍ عَبَثًا بِفَأْسِ المُهَجَّلِ
٣. وكأنَّ هادِيَهُ إذا اسْتَقْبَلْتَهُ جِذْعٌ أَذَلُّ، وكانَ غيرَ مُذَلَّلِ

[1] (*) أبو الفوارس عنترة بن شداد بن قراد العبسي، فارس عربي نجدي مضريّ، يعد من شعراء المعلقات، ومن أشهر الشعراء الجاهلين ولد(٥٢٥م) بنجد توفي (٦٠٨ م) بحائل، اشتهر بشعر الفروسية، للمزيد انظر ديوانه، ص٤ وما بعدها

[2] (١) عنترة بن شدادة: ديوانه، المكتب الاسلامي، مصر ٢٠٠٩م، ص٨١

٤. وكأنَّ مَخْرَجَ رُوحِهِ في وَجْهِهِ سَرَبانِ كانا مُولَجَيْنِ لِجِيالِ
٥. وكأنَّ مَتْنَيْهِ إذا جَرَّدْتَهُ ونَزَعْتَ عنه الجِلَّ، مَتْنا أَيِّلِ
٦. ولهُ حَوافِرُ موثَقٌ تَرْكيبُها صُمُّ الصُّخورِ كأنَّها مِن جَنْدَلِ
٧. ولهُ عَسيبٌ في سَبيبٍ سابِغٍ مِثْلُ الرِّداءِ على الفَتى المُتَفَضِّلِ
٨. سَلِسِ العِنانِ إلى القِتالِ، وعَيْنُهُ قَبْلاءُ شاخِصَةٌ كَعَيْنِ الأَحْوَلِ
٩. وكأنَّ مَشْيَتَهُ إذا نَهْنَهْتَهُ بالنَّكْلِ مِشْيَةُ شارِبٍ مُسْتَعْجِلِ
١٠. فَعَلَيْهِ اقتَحَمَ الوَقيعَةَ خائِضًا فيها، وأَنقَضَ انقِضاضَ الأَجْدَلِ

في لوحة حركية يصف عنترة فرسه القوي السريع الذي يكون دائمًا في حاله استعداد للحرب، لأنه شجاع واسع الخطوات وفي ذلك إشارة إلى سرعته المتلاحقة التي لا تهدأ، وفرط نشاطه الواضح مع سرعته، كما أن ظهره متسع أملس كأنه صنع من صخرة ملساء يجري الماء من فوقها، كما أن عنقه ضخم منتصب وهذه إشارة إلى شجاعته وقوته، خده أملس، فتحات أنفه متسعة كمدخل حجرة الضباع، كما أن حوافره قوية موثقة التركيب كأنها صنعت من صخر، شعر ذيله طويل يجمله كالرداء الذي يوضع على الرّجل، كما أنه قوي وشجاع لا يخشى الحرب، ويسهل توجيهه للقتال فعينه ظاهرة بارزة يصور عينه تصويرًا غريبا كعين الأحول، ويقتحم فرس عنترة المعركة اقتحامًا فينقض على الأعداء انقضاض الصقر، وهذه لوحة وصفية لفرس عنترة عبرت عن قوته وأشارت إلى شجاعته وإقدامه على الحرب، وفوزه على الأعداء، والانقضاض عليهم وقد استخدم عنترة مجموعة من الثنائيات التي وصف بها قتله أبرزها:

أملس الظهر واسعه ← صخرة يجري فوقها الماء
اتساع فتحات أنفه ← مدخل حجرة الضباع
عينه طاهرة ← عين الأحول

هذه أبرز الثنائيات الضدية التي وظفها عنترة في وصف فرسه، وقد أثرت اللوحة الوصفية وزادته جمالًا وبعدًا دلاليًا، كما أشارت إلى معاني متعددة وصورًا واقعية، وقد جاءت ثنائيات عنترة بشكل متناسق مع القصيدة لا تتسم بالتنافر بين عناصرها.

الخاتمة:

من خلال تحليل بنية الثنائيات الضدية في وصف الفرس لدى كل من امرئ القيس وعنترة بن شداد. وقد بيّن التحليل أن الشاعر الجاهلي لا يكتفي ببناء صورة جمالية للفرس، بل يتوسّل بهذه الصورة ليُعبّر عن رؤيته للذات والعالم، مستثمرًا نظامًا من العلامات المتضادة التي تتكاثف لتشي بدلالات تتجاوز ظاهر النص.

نتائج البحث:

بعد دراسة موضوع (الثنائيات الضدية في الصورة الشعرية الجاهلية - وصف الخيل أنموذجًا مقاربة سيميائية) توصلت إلى بعض النتائج من أبرزها:

١. كشفت الدراسة أنّ الشاعر الجاهلي يميل إلى بناء صورٍ تقوم على التقابل بين الأضداد بوصفه وسيلة تعبيرية تكثّف المعنى وتؤسس لرؤية جمالية متوترة، تتسق مع رؤيته للوجود بوصفه صراعًا دائمًا بين القوى.

٢. أوضحت المقاربة السيميائية أن صورة الخيل في الشعر الجاهلي لا تُقدَّم بوصفها دابةً للركوب فحسب، بل كرمز متعدّد المعاني، تتوزّعه ثنائيات مثل: الإنسان/الحيوان، العاطفة/الوظيفة، الجمال/الفتك.

٣. تتقدم الصورة الشعرية غالبًا وفق إيقاع سيميائي يقوم على "التقديم/التأخير"، "الإظهار/الإخفاء"، "الاقتحام/التحكّم"، حيث تتبادل الأضداد مواضعها داخل النص، وتُبنى الصورة من خلال هذا التذبذب المستمر، مما يمنح الوصف ديناميكية سردية لا تخلو من البعد الأسطوري.

٤. الشاعر الجاهلي لا يصف خيله كما يراها، بل كما يريد أن تكون، وبالتالي فإن الصور القائمة على التناقض ليست محض محاكاة للواقع، بل تأويل شعري لتمثيل قيم الوجود العربي قبل الإسلام: الهيبة، المواجهة، الإقدام، الفروسية، والصراع مع المصير.

٥. كشف التناول السيميائي عن أن وصف الفرس يقوم على شبكة من الثنائيات مثل: القوة/الرقة، الوحشية/الطواعية، الانطلاق/القيد، الإنسان/الحيوان، الظاهر/الخفاء، وهي ثنائيات تؤسس لتوتر رمزي يعكس الوعي الجاهلي بالعالم بوصفه فضاءً للصراع والتوازن في آنٍ.

المصادر والمراجع:

١. ابن الأعرابي: المعجم تحقيق عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، مجلد (١) دار ابن الجوزي.
٢. ابن رشيق القيرواني: العمدة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، مجلد١، ١٩٨١م.
٣. ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: دكتور مفيد محمد قميحة الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٤. ابن منظور، لسان العرب مادة (س. م. و)، دار صادر بيروت، لبنان، مجلد١٢
٥. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، مصطفي البابي الحلبي،٢٠٠٦م.
٦. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ط٧، ط١، ١٠٩٩٨م.
٧. البحتري، ديوانه، تحقيق كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص١٩٩
٨. جميل حمداوي: مدخل إلى السميوطيقا السردية، كتاب مخطوط، في المغرب، ٢٠١٥م. امرؤ القيس، ديوانه، رواية الأصمعي من نسخة الأعلم.
٩. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
١٠. عبد القادر مشارف، الاتجاهات السميولوجية المعاصرة ترجمة: حميد الحمداني وآخرون، دار إفريقيا الشرق الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧م.
١١. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، د. ت.
١٢. عنترة بن شدادة: ديوانه، المكتب الاسلامي، مصر ٢٠٠٩م.

١٣. فيصل للأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١.
١٤. النابغة الجعدي، ديوانه، دار صادر، بيروت، ط، ص١٨٨
١٥. الهروي، أبو عبيد أحمد بن محمد (المتوفى ٤٠١ هـ)، الغريبين في القرآن والحديث، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعه: أ. د. فتحي حجازي، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

باللغة الأجنبية:

1. long man of contemporary English, p(491)
2. oxford dictionary' gth edition, oxford university press.